مناقشة تاريخية

— ٢ —

بقلم عبد الحميد الرجيلي

ومن الغريب جداً أن يذكر الدكتور لفظ الأخوة والأخوان طي كلامه عن الفتيان في أوائل الدور العباسي مع ان هذا الاصطلاح جاء متأخراً جداً وشاع بين قوم من الروم في بلاد الاناضول كانوا ينتحلون طريقة صوفية خاصة وكانوا يتخلون الفتوة ويسمون انفسهم بالأخية [الأخوة] كما ذكر ذلك ابن بطوطة اثناء وصفه لمدينة انطاكية الرومية . وهذا كما هو واضح معنى متأخر عن العصر العباسي اتخذته بعض الفرق الصوفية ثم اخذته منهم بعض نقابات العمال الفنية في أواخر الفترة التركية : التترية والعثمانية .

وأيضاً من النقاط التي تأخذها على الدكتور في الجمل المتقدمة عده الثعالبي فيمن دافع عن العرب وذم غيرهم وعارض الشعوبية ولا ندري من اين استقى الدكتور هذا الرأي ونحن نعرف ان الثعالبي وان كان عربي الأدب ولكنه فارسي النشأة والولادة والفكرة ولم يعرف عنه انه دافع عن العرب ضد الشعوبية وكل ما نعرف انه سجل أدب الفرس في طيات أدب العرب باحتشام واهتمام وأن جملة من كتبه قدمها هدية للأمراء الفارسيين وان له كتاب غرر اخبار ملوك الفرس جعل الفرس فيه في اعلى قمة من التاريخ وفي أثناء هذا الكتاب الذي هو أهم مصدر لتأريخ الفرس كثير من التعظيم لملوك الفرس وآرائهم بل اني أعتقد ان هذا الكتاب الذي ألف في عصر الشاهنامه هو صنو لها في الاهتمام بالفكرة الفارسية واحيائها وتعظيم أدوارها . ولا نريد ان نوآخذ الثعالبي على ذلك وهو فارسي المحتد والمنشأ . وانما نريد أن نقول ان الثعالبي ليس في عداد من دافع عن العرب وقاوم فكرة الشعوبية وان نقل عنه ذلك فكتابه غرر اخبار ملوك الفرس يكذب ذلك في طياته . نعم في اول فقه اللغة مدح للعرب وللنبي [ص] وللغة العربية وهذا لا يعني مقاومة الشعوبية وتحفيز العرب على الاجانب وكذلك نقول في الجاحظ الذي عده الدكتور ضمن المدافعين عن الفكرة العربية والذامين للشعوبية . ان الدكتور حسبما يظهر لنا اكتفى من الجاحظ بكتاب البيان وبما قاله هناك في باب العصا وعلى زعم سبه للشعوبية هناك لم نره جاداً في رد آرائهم وانما ملأ موضوعه بفضل العصا والمحصرة ونحوها ولكننا لو أمعنا النظر في الجاحظ جيداً وفيما كتب عن غير العرب لعرفنا انه في قوميته كالماء في الكأس يأخذ لونه مهما كان ان لم نقل ان عرقه الحبشي كان يدفعه الى مثل هذا الاضطراب لقد ملأ الجاحظ الاتراك فكتب رسالة للفتح بن خاقان في مدحهم كما كتب رسالة في مدح السودان ورسالة ضدها في مدح البيضان ورسالة في مدح الشيعة وأخرى في نقض مذهبهم وهو تارة يمدح العثمانية واخرى يقول فيهم ما يريد . فالجاحظ اذن ليس ممن يعتمد على قوله في باب القوميات اذ لم يخلق ليفضل قوماً على قوم ولعله اول من وسع استعمال وادخال الألفاظ الفهلوية الفارسية في اللغة العربية في كتبه حتى اصبحت كلماته الفارسية المعربة مرجعاً للألفاظ الفارسية القديمة عند ادباء الفرس اليوم وكثيراً من هؤلاء الأدباء اليوم يفضلون الكلمة الفارسية التي تجيء في كتب الجاحظ على الكلمة الدارجة التي تعتبر عربية او في حكم العربية .

الكلمة في سبيل الايمان ، فلو تغلغلت هذه التعاليم الاسلامية في قلوبهم وامتلأت بها نفوسهم عقيدة ويقينا لوجدوها ارفع من كل هذه المبادئ الهادمة المخربة لكيانهم وعقائدهم ، ولتمكنوا أن يندفعوا باقدام راسخة ثابتة نحو التقدم والقوة والحق في طريق لا عسف فيه ولا جور .

بعد هذا جميعه أرى ان اغلب اللوم ينال هذا الشباب المسلم الذي انصرف عن التمسك بدينه وعقائد قومه وتقاليد امته ليلحق بالمذاهب الغربية المتناقضة والنظم المادية المضطربة ، وينقم على رجال الاصلاح والهداية الذين ينيرون له طريق التقدم والقوة ، فلو تكاتف بقواه ورأيه وايمانه حول رجال الحكم الذين يقدسون الدين ويستوحون الاصلاح بهداه وتعاليمه ويتبعون السير بنوره وايمانه . لكان لهذا الشباب الواعي خيراً ولهذه الامة شأناً عظيماً والسلام على من فكر فعمل ؟

[البيان]

ثم قال الدكتور في معرض ظهور الروح العربية الاصلاحية متدرجاً في البحث (.. فظهر بعض المصلحين كأحمد بن تيمية وتلميذه ابن القيم [١] الجوزية (كذا) الذين رأيا في الانحراف عن الاسلام الصحيح وفي الخرافات التي تسيطر على المجتمع وفي استغلال العثمانيين للثمرات سبب تفسخ المجتمع ورأيا ان الاصلاح يتطلب الرجوع الى مبادئ الاسلام الأولى بما فيها من تسامح وحرية للفكر ونبذ للاساطير والاعتصام بالشورى وعدم قبول الجور فكان مصيرهما الاضطهاد من العثمانيين (كذا) وقضى ابن تيمية نحبه في السجن ولكن صوته الحر لم يخب وظهر محمد ابن عبد الوهاب بطل الحركة الوهابية ودعا الى تطهير الاسلام من البدع لينهض المسلمون عامة والعرب خاصة وقام بحركة في الجزيرة كانت صرخة مدوية ضد آفتي الجهل والظلم ..

.. وقد هزت الشعب العربي عامة هزة عنيفة وامتداثرها حتى شمال افريقيا حيث ظهرت بتأثيرها الحركة السنوسية التي قاومت الايطاليين ..)

وفي هذه الجمل التي ذكرها الدكتور نقاط لا نحتمل انه قالها عن تقصد وفراغ بال وانما مر بها سراعاً حينما اراد ان يسجل كلمة في الموضوع ليعطيها للصحيفة والا كيف يفوت على الدكتور هذا التهافت وهذا الخلط . لقد بحث الناس كثيراً آراء ابن تيمية وقالوا فيها كلتهم ولم يقل حتى الآن احد أن ابن تيمية كان يتمثل الثورة العربية الاصلاحية ضد الاجانب حينما بث آراءه وانما كان رجلا عالماً محافظاً على نصوص الدين وعلى ظواهر الآيات والأحاديث حتى اندفع برأيه هذا ان جعل لله يداً ورجلا ومحلاً وصعوداً ونزولاً لأن ذلك هكذا ورد من الشرع واذا كان في بعض آرائه شيء من التجدد والخروج على المألوف فلم يكن منه الا بدافع الفهم للدين بهذا النوع من التفكير فهو حنبلي رجعي محافظ اعاد عهد الحنابلة في الدور العباسي ومقاومتهم لكل ما تشم منه رائحة العقل والتفكير الحر في الدين ونصوصه بل لقد حاول ابن تيمية القضاء على كل حركة عقلية لذلك قاوم المعتزلة وقاوم غيرهم بحجة الخروج عن نصوص الدين حتى قال ان اليد والقدم والساق والوجه صفات حقيقية لله وانه مستوى على العرش بذاته وقد سمعه ابن بطوطة في جامع الشام حينما سئل عن النزول فقال هكذا ينزل الله من عرشه ونزل من المنبر درجتين وقد اكد هذا ابن حجر في لسان الميزان (ص١٥٥) بل قاوم اغلب المصلحين في الاسلام كالغزالي وغيره من رجال الفرق . وهاجم اغلب المذاهب الاسلامية وما عمل الآن زاد مذهبا جديداً على هذه المذاهب المتعددة وقد دافع عنه جملة من العلماء كصفي الدين الحنفي البخاري النابلسي في القول الجلي وكسيد نعمان الالوسي في جلاء العينين في محاكمة الاحمدين ولكن هؤلاء المدافعين لم يعملوا اكثر من ان يكذبوا ما نقله عنه علماء عصره امثال السبكي وغيره . ولا نريد ان نطيل الكلام مع الدكتور في ابن تيمية وابن قيم الجوزية فله ان يعتقد ما يريد . وانما نعارض ان يكونا ثائرين عربيين ضد الأجانب وانما هما مجتهدان اتيا بأمور اغلبها ينافي العقل الحر ويتفق وبعض الظواهر الدينية التي لم يقرها اغلبوا مفكري الاسلام . ومن العجيب جداً ان يعتبر الدكتور ابن تيمية وابن قيم ثائرين على الحكومة العثمانية . واين الحكومة العثمانية من حكومة المماليك في مصر والشام . وعلى ما حررناه تعرف ان حالة ابن عبدالوهاب تلميذ ابن تيمية تشبه حالة استاذه فلم يقم ابن عبدالوهاب لثورة العرب الاصلاحية ضد الاجانب وانما كان صدى لابن تيمية في كل ما قال وفي كل جموده ورجعيته ولا علاقة لابن سعود وثورته بابن عبدالوهاب الا علاقة من اراد يغذي ثورته على عرب الجزيرة بروح جديدة وبحجة جديدة ليستولي على الجزيرة دون غيره من العرب ليس غير ونحن كلما فكرنا في علاقة السنوسي بابن عبدالوهاب نرجع خائبين على رغم بعض من قال بذلك وأين التصوف وطرقه وزواياه واورداه التي تعلق بها السنوسيون من آراء ابن تيمية وابن عبد الوهاب وانا كانا في وقت واحد ولا علاقة اخرى غير ذلك. حقاً لقد قاوم السنوسيون الأجانب الايطاليين وحاربوهم حينما كان ابن سعود ولا يزال يداري الأجانب ويترضاهم . وانما حاربه العثمانيون لبدعته لا انه حارب العثمانيين . ولما عجز عنهم مالأ اجانب آخرين لاعلاقة لهم بالجزيرة . هذا ما اردنا أن نقوله في هذه العجالة وبالله التوفيق .

عبد الحميد الرجيلي

[١] كذا ورد في مقال الدكتور والصحيح ابن قيم الجوزية . والجوزية مدرسة بالشام كان أبوه قيما عليها .